عشرة أعوام على رحيل «الأستاذ»!

د. راشد بن علي البلوشي
أستاذ اللغويات الساعد بجامعة السلطان قابوس

عندما بدأت أشاهد أفلام و مسرحيات الفنان عادل إمام أعجبت بشدة بقدرته على طرح القضايا الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية و غيرها من القضايا الهامة في قالب كوميدي و بأسلوب فكاهي يتبنى الفكرة و يقدمها للجمهور بطريقة فعالة توصلها إليهم و تؤثر فيهم و تلامس وجدانهم و في بعض الأحيان تغير من آرائهم و وجهات نظرهم في ما يطرحه من قضايا. لا ننسى هنا دور الممثلين الآخرين و الذين لا يكتمل الفيلم أو المسرحية إلا بأدائهم المتميز، و طبعا لا ننسى دور المؤلف الذي كتب العمل الفني وأعطاه من و قته و جهده و معرفته و ثقافته الكثير (وكذلك دور المخرج و المنتج) ليوصل لنا العمل مجموعة من الرسائل في مختلف القضايا و يظهر لنا عملا متميزا بحجم مسرحية «الواد سيد الشغال» أو مسرحية «الزعيم».

لا أقول هنا أن الفنان عادل إمام هو الأفضل على الإطلاق بين فناني جيله (رغم أن البعض يعتبرونه الأفضل)، ولكنه بالتأكيد من أفضلهم. فكلهم نجوم تبرز نجوميتهم في ما يعالجون من قضايا تهم الواقع المصري و العربي و الإنساني، كل بحسب ما اختار من أعمال و ما ناسبه من أدوار و ما أوكل إليه من مهام. لن ندخل هنا في القائمة الطويلة من الفنانين المتميزين من جيل عادل إمام (سمير غانم، سعيد صالح، ...) لأن هذا ليس هو موضوع هذا المقال. تذكير: في ما يخص الفنانين، لن ندخل في ما يتعلق بأيديولوجياتهم و توجهاتهم و أمورهم الشخصية، وإنما سنناقشهم من منطلق أعمالهم و أدوارهم في ما يخص رسالة الفن النبيلة و هي النقد البناء و إبراز القضايا المهمة في المجتمع و إيصال صوت المواطن إلى الجهات الحكومية و الخاصة المسؤولة.

و لكن عندما بدأت أشاهد أفلام و مسرحيات الفنان فؤاد المهندس (و الذي توفي في عام ٢٠٠٦)، و خصوصا ما كان منها بالأبيض و الأسود، اكتشفت أني أمام فنان أكبر بكثير من مَن جاء بعده من فناني الكوميديا. فأسلوبه المتفرد وطريقته الخاصة و ثقافته الفن«ية والاجتماعية العالية وحركاته على المسرح وقدرته على صنع الضحك تدل على أنه يستحق بالفعل لقب «الأستاذ». عادة ما يؤخذ على الفنان فؤاد المهندس في معظم اعماله أنه كان يهتم ب «الضحك من أجل الضحك»، رغم أنه قدم بعض الأعمال التي تناقش جملة من القضايا الاجتماعية، و كذلك مسرحية سياسية بعنوان «ليه ليه» و لكنها لم تلق نجاحا. لن ندخل هنا في التفاصيل و لكننا سنعرج الى لقب «الأستاذ» المستحَق (بشهادة كثير من مَن جاء بعد الفنان فؤاد المهندس من الفنانين الذين تأثروا بأسلوبه و تعلموا منه)، و نناقشه من بعض أبعاده التربوية والإنسانية، و التي لم يغفلها الفنان الأستاذ.

شخصيا، لا أعتقد أن الفنان فؤاد المهندس استحق هذا اللقب فقط لأن كثيرا من زملائه احتكوا به و استفادوا من مواهبه و خبرته و مشاركته لهم أعمالهم الفنية (مما أدى إلى نجاحها

و نجاحهم معها) و لا لأن مَن جاء بعده من الفنانين تعلم منه مهاراته في التعامل مع النصوص والزملاء في بيئة العمل و الكادر الفني (من كتاب و مخرجين و منتجين و مصورين و غيرهم) و خشبة المسرح و الجمهور و الكاميرا، و لكنني أعتقد بوجود سببين آخرين. الأول هو اهتمام الفنان فؤاد المهندس بغيره من الفنانين من الأجيال التي تبعته. فنلحظ وجود عادل إمام (و الذي يقول عنه فؤاد المهندس أنه «ابنه البكر») في أربع من مسرحياته و كذلك وجود محمود الجندي و أحمد راتب و غيرهم من الفنانين الذين ينتمون للأجيال اللاحقة. و السبب الثاني هو عدم امتناعه عن العمل في الأدوار المساندة لفنانين يعتبرون تلامذة له، فعمل مع أحمد زكي في «البيه البواب» و مع عادل إمام في «سبعة باب» و «خلي بالك من جيرانك» و مع غيرهم في أعمال كثيرة. وبذلك فإن الفنان فؤاد المهندس يصبح مثالا للأستاذ الناجح. في ما سيأتي سنناقش و باختصار هاتين الميزتين للأستاذ الناجح.

فالأستاذ الناجح هو من يوفر الفرص المناسبة حتى يتمكن تلاميذه من إظهار قدراتهم ومواهبهم وإبداعاتهم، فهو يكتشف المبدعين والمتميزين ويهتم بهم ويساعدهم على صقل مواهبهم و مهاراتهم و يوجههم إلى كل ما من شأنه تطوير قدراتهم وتنمية مواهبهم والارتقاء بأدائهم ويقترح عليهم الأدوار أو الأعمال لكي يحققوا ما يصبون إليه من طموحات، وكذلك لكي يستفيد الوطن و الأمة من ما أعطاهم الله من قدرات و مواهب، و لذلك غالبا ما يعتمد الأستاذ الناجح على أكثر من طريقة لتقييم أداء تلامذته. و كما يقوم بتزكيتهم التزكية الإيجابية المحمودة (و ليس الواسطة)، فالتزكية الإيجابية تكون لمن يحتاج المساعدة ليحصل على ما يستحق، أما «الواسطة» فهي أحيانا تكون لمن ليس جديرا بما يريد.

و هذا يصل بنا إلى الفكر المستنير للأستاذ الناجح و النفس العظيمة التي يتحلى بها، فهو يعتبر عمله رسالة (و ليس فقط مصدرا للعيش و للمكانة الاجتماعية)، و لأنه يؤمن بهذه الرسالة فإنه يهتم جدا بإيجاد أو اكتشاف من يستطيع أن يؤدي الرسالة و يحمل المشعل و يتحمل المسؤولية من بعده، و لذلك فهو يهتم جدا بأن يكون تلامذته أفضل منه و إلا لما تطور المجال الذي يعمل فيه (مهنيا كان أو فنيا أو أكاديميا)، فهو لا يهتم فقط بأن يحصل تلامذته على كل ما تعلم من علوم و اكتسب من معارف و خبرات و طور من مهارات و قدرات وإنما يهتم بأن يسلحهم بالمهارات والقدرات التي تمكنهم من ان يتخذوا من إنجازاته قاعدة ينطلقوا منها إلى ما هو أبعد و بداية لما هو أكبر و أفضل وأرقى حتى تستفيد الأمة من مواهبهم و قدراتهم.

و الأستاذ الناجح هو من يثق في نفسه و قدراته و يؤمن بأن له رسالة يؤديها و دورا يلعبه، حتى و لو لم يكن الشخصية الرئيسية (البطل) في العمل (أو المدير في الشركة أو المؤسسة الحكومية). و تظهر هذه الثقة جلية في قدرته على العمل بكفاءة عالية حتى و لو كان رئيسه في العمل من أحد طلابه (أو أصغر منه سنا)، فهو لا يستنكف عن القيام بأي دور يخدم فيه مصلحة العمل، و ذلك لأنه يعمل لنفسه و لمهنته و ليس لرئيسه. فنرى مثلا أن المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي (و هو مؤسس النظرية اللغوية الحديثة) و الذي أنهى درجة الدكتوراه في عام ١٩٥٥ليس رئيس قسم اللغويات في جامعة MIT الأمريكية و لكن الرئيس هو أحد تلامذته (و هو البروفيسور ديفيد بيستسكي و الذي أنهى درجة الدكتوراه في عام ١٩٨٢)، و يصدق هذا على كثير من المفكرين و الأساتذة و الموظفين في كثير من المؤسسات المهنية و العلمية حول العالم، فهم لا يرون في ذلك إنقاصًا من قدرهم أو إهمال لخبراتهم أو إجحاف بحقهم.

طبعا لا يتحلى بهذا الفكر العظيم إلا النبلاء من الأساتذة و الأذكياء من المعلمين. نعم، هم أذكياء لأنهم يعرفون أنه حتى و لو وصل طلابهم إلى درجات أعلى من درجاتهم ومراتب أرقى من مراتبهم وحققوا شهرة أكبر من شهرتهم فإنهم شركاء لطلابهم في ما يحققون من إنجازات و ما يصنعون من مجد لأن الفضل يعود للمعلمين في تعليمهم بإتقان و توجيههم بإخلاص لهم و للمهنة. و الشاهد أن حقيقة نجومية و إبداع تلامذة الفنان فؤاد المهندس هي خير دليل على اهتمامه بهم و على جودة ما تلقوه من تعليم وتدريب و توجيه منه، و كذلك على فكره النبيل.